أثر اتصال الأندلسيين بالأسبان والمغاربة في الشعر الأندلسي

للدكتور أحمد عبد الواحد ابراهيم

(١)

من الحقائق المقررة في علم الأدب المقارن أن الحروب بين الشعوب والدول من أهم عوامل الاتصال التى تتيح فرص التأثير والتأثر بين الآداب (١) .

وقد أثبت البحث أنه كان هناك اتصال بين العرب والأسبان عن طريق الامتزاج والتآلف بين العناصر العربية والأسبانية من السكان ، وتحت تأثير العراك المستمر بينهم وبين القوى المسيحية في الشمال (٢) .

ويقول غارسيا غومس G. Gomez : « اختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصر الجديدة التى حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة ، وقد شجع عملية المزج هذه وعمل على تقويتها عامل على أكبر جانب من الأهمية : ذلك هو البيت الأموى الذى وقف محايدا وصمد للتيارات المتضاربة كلها ، ولقد كانت قرطبة بلدا نصف عربي يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس . . وتجلى اختلاط الأجناس بعضها ببعض وتجاور الديانات بعضها مع بعض عن جو سمح جميل إنساني شفاف . . هنا قبس الشرق طابع الغرب من نسائم جبل قرطبة الرقيقة

١ ـ الادب المقارن ـ للدكتور محمد غنيمى هلال : ص ١١٦ ط ثالثة

٢ ـ Legacy of Islam, P. 180 (Oxford 1931).

الريفية ، كانت قرطبة تتقبل كل شيء وتتمثله وتحوله إلى شيء آخر بعد تصفيته . . ولقد عرف الأندلس على أيام الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) دواوين المتنبي وغيره من أئمة القريض العربي القديم المحدث ، ووفد سفراء الثقافة المشرقية كالقالي وصاعد البغدادي ، وسفارات نصرانية من الغرب حاملة معها كتب ديوسقوريد في الطب ، كان حشد حافل من الثقافة الجديدة يعتمل ويختمر في قرطبة » (٣) .

وانتهى البحث كذلك الى تأكيد أثر الموشحات والأزجال العربية في شعر التروبادور الأوربي (٤) .

كما اهتدى بعض الباحثين إلى طريق الاتصال الأدبي الذى أدى إلى ذلك التأثير ، وفي ذلك يقول هاملتون جب H. Gibb « والمسيحيون في الأندلس أصبحوا مستعربين كما يؤخذ ذلك من الاسم الذى عرفوا به Mozarabes وممن كانوا كذلك مطلعين على الأدب العربي ، هؤلاء المسيحيون في الأندلس نقلوا كثيرا من بذور الثقافة الإسلامية إلى الممالك الشمالية . ولا ريب أن تبادلا على هذا النحو كان أساسا لظواهر كثيرة في تاريخ الشعر الأندلسي وكثير من الشعر الأسباني .

ثم كان للعبقرية الأسبانية (يعنى الأندلسية) أثر كبير في تطور الأوزان الشعرية الغنائية ، إلا أن هذه التحسينات الفنية التى ادخلتها قوانين الأوزان الشعرية العربية على ذلك النوع الأدبي من الأغاني المعروف بالموشحات — عاد القوم فأدخلوها على أغانيهم الشعبية التى استخدمت فيها العامية العربية والجليقية وعرفت إذ ذاك باسم الزجل ، ثم من هذا الزجل نفذت تلك التحسينات الفنية كلها أخيرا إلى الشعر الذى قيل باللغة الجليقية وأخواتها .

---

٣ — الشعر الاندلسى — لغارسيا غومس (ترجمة حسين مؤنس) ص ٩

٤ — التروبادور (Troubadours) هم شعراء العصور الوسطى الاوربية الذين وجدوا فى اواخر القرن الحادى عشر الميلادى فى جنوبى فرنسا اولا ، ثم أثروا بشعرهم وما يحتوى من معان فنية فى الشعر الاوربى كله حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، وكانو يعيشون فى بلاط الملوك والامراء ويتغنون بالحب على نحو يخضع فيه المحب لحبيبته ويعبر عن سلطانها عليه ، على الرغم من بقائه مع ذلك فى دائرة الغزل الحسى

ولا نكاد نشك في أن الأغاني الشعبية التى يطلق عليها اسم « الشعر القروى » أو اسم (الفيلا نثيكو Villancico) هى بعينها الزجل ، وليس هناك ما يحملنا على الظن بأن مثل هذا التأثير كان محصورا في فن واحد أو مقصورا على نوع فرد من الشعر مهما قامت العناصر التى تثبت عربيتها من الشعر الأسباني .

وإذن فقد كانت وساطة النقل هى الزجل الشعبي والشعر القروى المعروف باسم (الفيلانثيكو) الذى هو نظير الزجل في الأدب الجليقى » (٥) .

* ● *

هذا عن استفادة الشعر الأسباني — والأوربي عامة — وتأثره بالشعر الأندلسى ، فما الذى استفاده الشعر الأندلسي وتأثر به من الاتصال بالأسبان ؟

قبل أن نتحدث عن إجابة لهذا السؤال نبادر أولا فنذكر أنه لم يكن هناك حائل من ناحية اللغة ، فقد أكد جب Gibb بناء على دراسات بعض المستشرقين الأسبان أنه « قد ثبت ثبوتا لا يحتمل الجدل أن مغاربة المسلمين بالأندلس لم يكونوا أسبانيين معرقين في الأسبانية فقط ، ولكن ثبت أيضا أنهم من كبيرهم لصغيرهم كانوا يفهمون اللغة الجليقية (Galcian) وهى لهجة متولدة من اللاتينية ، وكانوا يتكلمون بها في بيوتهم ومعاملاتهم » (٦).

وأما عن استفادة الشعر الأندلسى من الاتصال بالأسبان فهى في رأى رينولد نيكلسون R. Nicholson أنه « تماما كما أن الشعر العربي في المشرق تكيف بتأثيرات الثقافة الفارسية فإن الامتزاج التدريجى بين الآريين والساميين في الأندلس قد أدخل عناصر جديدة تركت أثرها في أدب كل من الجنسين ، وربما كانت أهم ملامح الشعر الأندلسى هى الشعور الرومانسى الرقيق الذى كثيرا

٥ — Legacy of Islam, P. 180 — 209

٦ — المرجع السابق

ما يتبدى في قصائد الغزل ، وهو شعور يسبق — في بعض الأحيان — ما ظهرت به فروسة العصور الوسطى . وفي المقام الثاني إحساس — يكاد أن يكون جديدا — بنواحي الجمال في الطبيعة ، ومن أجل هذه الخصائص فإن القصائد في هذه الأغراض تستهوى كثيرا من القراء الأوربيين الذين لا يستسيغون بسهولة روح المعلقات أو قصائد المتنبي » (٧) .

ويرى غومس Gomez أن الشعر الأندلسى قد أفاد من اتصال العرب بالأسبان « من غير الميسور لنا أن ننصت إلى الأنشاد الأندلسية ونفصل منها الأصوات الأسبانية الصرفة عن غيرها » (٨)

ويرى جب Gibb كذلك أن هذا الاتصال قد أفاد فنون الشعر الأندلسى نوعا من الاستقلال : « إن ما كان للثقافة من وحدة في العالم الإسلامى قد أوجب أن تزدهر هذه الفنون الشعرية كذلك بالأندلس ، إلا أن هذه الفنون الشعرية هناك قد سارت على أسس مستقلة إلى أبعد من هذا الحد ، وذلك عن طريق الامتزاج والتآلف بين العناصر العربية والأسبانية من السكان » (٩) .

وما قرره هؤلاء الباحثون لا يشير إلى تأثر بلون معين من الأدب الأسباني يمكن أن يقال إن الشعر الأندلسى قد أفاد منه أو نقل عنه أو تأثر به ، مثلما أفاد شعر التروبادور والشعر القروى من فنى الموشح والزجل الأندلسيين .

وهم يشيرون إلى ما استحدثه الأندلسيون في الشعر من الموشح والزجل (١٠) ويعدونه أثرا من آثار الامتزاج بالبيئة الأسبانية ، يقول غومس Gomez « قدمت

---

٧ — A literary History of the Arabs, P. 416 (Cambridge 1930)

٨ — الشعر الاندلسى (ترجمة حسين مؤنس) :ص ٧—٨

٩ — Legacy of Islam, p. 180 - 209

١٠ — Cassel's Encyc. of literature (Ed. Steinberg)

أسبانيا للاسلام فنها الشعرى الخاص بها ، وهو فن الأزجال والموشحات » (١١)

ويقول جب Gibb –فيما نقلنا عنه سابقا– «ثم كان للعبقرية الأسبانية أثركبير في تطور الأوزان الشعرية الغنائية، إلا أن هذه التحسينات الفنية التى أدخلتها قوانين الأوزان الشعرية العربية على ذلك النوع الأدبي من الأغاني المعروف بالموشحات – عاد القوم فأدخلوها على أغانيهم الشعبية التى استخدمت فيها العامية العربية والجليقية وعرفت إذ ذاك باسم الزجل » (١٢) .

ولكن هذا أيضا لا يضع أيدينا على نوع محدد من التأثر بلون معين من الأدب الأسباني ، بل هو يشير إلى استفادة الأغاني الشعبية – تلك التى استخدمت فيها الجليقية بجانب العامية العربية – من أوزان الموشحات وهى لون من الشعر عربي خالص لم يثبت تأثره بجنس معين من أجناس الأدب الأسباني .

فإذا كان تبادل التأثر بين الآداب – عن طريق الاتصال – قد ظهر في جانب الشعر الأوربي بما استفاده شعر التروبادور من الموشح والزجل ، فإنه لم يظهر بمثل ذلك في جانب الشعر الاندلسى .

وقد يفسر ذلك أن التأثر والاستفادة بأدب ما – عن طريق الاتصال – لابد له من توفر عامل هام ، هو ما أشار إليه جب Gibb بقوله :

« لابد قبل أن يحدث أى نوع من أنواع النقل من توفر شرط الاستعداد من أحد الجانبين – أو منهما معا – ونعنى بذلك أن تكون لأحدهما – أو لكل منهما – رغبة في أخذ ما يعطيه الطرف الآخر ، وفي هذا اعتراف ضمنى بتفوق أحد الجانبين على الآخر في هذا الميدان أو ذاك » (١٣) .

---

١١ – الشعر الاندلسى (ترجمة حسين مؤنس) :ص ٧ – ٨

١٢ – Legacy of Islam, p, 180 - 209

١٣ – المرجع السابق

(٢)

وأما صلة الأندلس بالمغرب فقد كانت صلة طبيعية حتمتها ظروفها والأخطار التي كانت تهددها من جانب المسيحيين ، ولم تنته إلا بسقوط الأندلس نهائيا في يد الأسبان ونزول آخر ملوكها أبي عبد الله محمد بجوار سلطان فاس الشيخ محمد الوطاسي .

ولم يكن دور المغرب قاصرا على نجدة المسلمين في الأندلس وولاية حكمها في بعض العصور — بل كان إلى جانب ذلك ملجأ يأوى إليه الكثير من الأندلسيين فيجدون الأمن والاستقرار ، وقد حفلت المراجع بذكر كثير من أعلام الأندلس الذين هاجروا الى المغرب ، ومنهم على سبيل المثال — حازم القرطاجني ، وابن أبي حفص ، وابو الحجاج البياسي — وقد استقروا في تونس — بعد زحف النصارى على شرقي الأندلس واستيلائهم على قواعده .

★ ● ★

فإذا تتبعنا آثار هذا الاتصال في الشعر الأندلسي وجدنا منها أن قدرا وفيرا من شعر الأندلسيين قد خص به المغاربة ، من قصائد في مديح خلفائهم وأمرائهم بالأندلس ، إلى قصائد في استغاثتهم ، وأخرى في وصف معاركهم والاشادة بانتصاراتهم ، وبعضها في استعطافهم والتوسل إليهم . ونشأت بذلك أغراض جديدة في الشعر الأندلسي مثل الاستغاثة والاستعطاف .

ولابد أن يكون موقف المغاربة — في عهد حكمهم للأندلس — من الفلسفة والفلاسفة مما أثر في الشعر الأندلسي وجعل معانيه بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء ، ومعروف ما كان من الخليفة الموحدي المنصور أبي يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن من معاقبة الفيلسوف ابن رشد بالنفي من قرطبة ، ونفي زملاء له إلى جهات أخرى ، ومصادرة كتب الجميع وإحراقها أينما وجدت ، وقد وجه المنصور كتابا في هذا الموضوع من إنشاء كاتبه — أبي عبد الله بن عياش — إلى

مراكش وغيرها من قواعد المغرب والأندلس ، بين فيه خطر الفلسفة على الدين وجناية الفلاسفة عليه ، جاء فيه : « فاحذروا — وفقكم الله — هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية في الأبدان ، ومن عُثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التى يعذب بها أربابه ، وإليه يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مُجْرٍ في غلوائه ، عَمٍ عن سبيل الله استقامتِهِ واهتدائِهِ ، فلْيُعاَجلْ فيه بالتثقيف والتعريف ، ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ثم لا تنصرون » (١٤) .

ويرى نيكل Nykl أن المنصور — بعد موقعة الأرك — كان قد انتهى إلى أن الفلسفة من شأنها أن تضعف الحماس الدينى — وهو المدد الأكبر للشجاعة في مقاتلة النصارى (١٥) .

ومن آثار الاتصال بالمغاربة — كذلك — ظهور سمات مغربية في الشعر الاندلسى ، منها بعض الالقاب والصفات المغربية ، مثل « « أمير المسلمين » وهو اللقب الذى اتخذه يوسف بن تاشفين عقب انتصار الزلاقة ، ومثل « المهدى » لقب محمد بن تومرت ، ومثل « الأمير الأجل » أو « السيد الأجل » وهو مما يوصف به أمراؤهم ، قال ابن صاحب الصلاة في الحديث عن غزوة المهدية وفتح إفريقية (تونس) :

« فلما تحرك أمير المؤمنين . . ووصل مدينة تلمسان أمر ابنه السيد الأعلى أبا حفص أن يصحبه في غزاته — وكان واليا عليها — فامتثل لذلك ، ولما وصل أيضا مدينة بجاية كان ابنه السيد الأجل أبو محمد عبد الله واليا عليها فأمره أيضا بصحبته والمشى في الغزاة المذكورة ، فامتثل ، ومشيا مع أبيهما في العسكر المنصور » (١٦)

ومن الشعر الاندلسى قول القاضى أبي محمد عبد الحق بن عطية :

---

١٤ — عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس — لمحمد عبد الله عنان (القسم الثانى) ص ٢٢٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر — نقلا عن الذيل والتكملة للمراكشى

١٥ — Hispano Arabic Poetry, p. 317 (Baltimore 1946)

١٦ — لمن بالإمامة على المستضعفين : ص ١٩٨ — بالمكتبة الصقلية (اماري)

ونحو أمير المسلمين تطـامحت نواظر آمال وأيدى رغائب (١٧)

وقول ابن خفاجة في مدح أبي إسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين :

ألا هل أطـل الأمير الأجـل أم الشمس حلت برأس الحمل
لك الله من سـيد أيـد تحلى الزمان به من عطـل
فقل لابن رذمير مهلا يسـيرا يقيم صغاك الأمير الأجل (١٨)

وقول ابن الأبـار :

وأحيي ما طمست منها العداة كما أحييت من دعوة المهدى ما طمسا(١٩)

ومنها أسماء بعض قبائلهم :

يقول القاضى أبو الحسن بن أضحى يمدح الأمير عبد الله بن مزدلى :

وحولك الصيد من لمتونة وهم الـ أبطال يوم الوغى والأنجم الزهر
ومن زنـاتة أبطـال غطـارفة ذوو تجارب في يوم الوغى صبر
ولمطة وهمُ أهل الطعان لدى الـ هيجاء في زمر تقتادها زمر (٢٠)

ومنها إضفاء صفة الزعامة الدينية على رؤسائهم :

يقول حازم القرطاجنى يمدح الأمير أبا زكريا يحيي بن أبي حفص :

يا إماما أصـبح الديـن م إليـه وهـو راكـن
والـذى حزب الهـدى لا م ق به للفـتح لاقـن (٢١)

والرصافي البلنسى يمدح الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على عند نزوله بجبل الفتح (جبل طارق) فيقول :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور (٢٢)

---

١٧ ـ المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ـ للمراكشى : ص ٢١٤
١٨ ـ ديوان ابن خفاجة : ص ٩٧ ـ ط جمعيـة المعارف
١٩ ـ نفح الطيب جـ ٢ ص ٥٧٧ ـ ط الازهرية
٢٠ ـ المعجب ـ للمراكشى : ص ٢١٩
٢١ ـ ديوان حازم القرطاجنى (بتحقيق الدكتـور احسان عباس) ص ١١٣ ـ نشر بالمكتبة الاندلسية
٢٢ ـ ديوان الرصافى البلنسى (بتحقيق عفيفـة لديوانى) ص ٧٧ ـ نشر بالمكتبة الاندلسية

ومنها مخاطبتهم بلون خاص من التعظيم يغلب عليه التذلل والخضوع :

يقول ابن الأبار مستغيثا أبا زكريا بن أبي حفص للأندلس :

وابصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعا تهمى زكا وخساً

ويقول شاعر آخر :

هى دارك القصوى أوت لإيـالة ضمنت لها مع نصرها إيـواءها
وبها عبيدك لابقاء لهـم سـوى سبل الضراعة يسلكون سواءها(٢٣)

ويقول ابن الخطيب في خطاب أحد سلاطينهم :

والناس طـراً بأرض أنـدلس لـولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة القـول أنـه وطـن في غير علياك ما لـه وطر (٢٤)

ومما خاطب به آخر ملوك الأندلس أبو عبد الله محمد مستعطفا سلطان فاس :

خليفة الله وافاك العبيد فكـن في كل فضـل وطول عند ظنهم

ومنها – فوق ما سلف – الإشارة إلى زيهم ووصف هيئتهم :

يقول التطيلى في صفة فرسان المرابطين مشيرا الي عادتهم في التلثم :

فقُد الخيـل مشرفات الهوادى لاحقات الأقراب والآطـال
تتبـارى بكل طيـار كالأيم وإن هجته فكالرئبـال
باهر في اللثام والطـرف لا يبـهر حتى يجول ملقى الجلال (د٢)

ولأبي بكر يحيى بن الصيرفي كاتب الأمير تاشفين :

يا أيها المـلأ الذى يتقـنع من منكم البطل الهمام الأروع (٢٦)

---

٢٣ – نفح الطيب (الجزء الثانى) ص ٥٨٩ ط الازهرية
٢٤ – المرجع السابق ج (٣) : ص ٥٢
٢٥ – دوان الاعمى التطيلى (بتحقيق الدكتوراحسان عباس) ص – ١٠٠ – نشر بالمكتبة الاندلسية
٢٦ – ازهار الرياض فى اخبار عياض – للمقرى – ج ١ ص ٦٢ ط تونس